من تاريخ الخليج العربي :

عوامل ظهور وانهيار الدولة الاباضية في عمان

الدكتور فاروق عمر فوزي
قسم التاريخ

أشرنا في بحث سابق[1] أن هناك ثلاثة ظواهر أساسية تتحكم في تاريخ عمان وهي : القبلية ـ الامامة ـ والصراع بين العرب من اهل عمان والاجانب من اجل السيطرة على ساحل عمان لاهميته الاقتصادية .

وسنلاحظ عند محاولتنا ، في هذا البحث ، استقصاء اسباب تفكك ثم سقوط الكيان السياسي الذي نجح الخوارج الاباضية في تأسيسه في عمان ، سنلاحظ بانها لا تخرج عن اطر الظواهر الثلاث آنفة الذكر .

فمن الملعروف ان الامامة الاباضية الثانية عادت فبسطت سيطرتها على عمان في حوالي سنة ١٧٧ هـ ٧٩٣/٧٩٤ م حيث نعمت البلاد بحالة من الاستقرار والهدوء النسبي خلال عهود بعض الائمة مثل الوارث بن كعب الخروصي[2] وقد تمكن هؤلاء الائمة من رد هجمات القراصنة على الساحل وافشلوا كذلك محاولات الخلافة العباسية لاعادة سيطرتها على الاقليم .

الا ان العصبيات القبلية جعلت الاقليم يتردى في حالة من الفوضى والارتباك فقد استطاعت اليمانية ان تلحق هزيمة كبيرة بالنزارية في موقعة القاع[3] سنة ٢٧٨ هـ/سنة ٨٩١ م وقد طلبت النزارية المساعدة من محمد بن بور والي البحرين للخلافة العباسية يقول الازكوي ان محمد بن القاسم وبشير بن المنذر قدما على ابن بور :

« وشكيا اليه ما اصابهما من الفرقة الحميرية وسألاه الخروج معهما

الى عمان واطمعاه في اشياء كثيرة فأجابهما الى ذلك »[٤] .

على ان والي البحرين لم يتخذ قرارا سريعا في هذا الشأن وطلب من شيوخ النزارية الاتصال بالخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩/٨٩٢ — ٢٨٩/٩٠٢) والحصول على موافقته لارسال حملة عسكرية الى عمان . وقد وافق الخليفة المعتضد على تجهيز حملة وأمر والي البحرين بالاستعداد حيث بدأ باستنفار القبائل المضرية من اقاليم عديدة حتى ان اعدادا كبيرة من طي وصلت من الشام الى البحرين .

ويشير الازكوي في كشف الغمة الى ردود الفعل في عمان تجاه هذه الحملة فيقول[٥] :

« ثم اتصل خبره [محمد بن بور] بعمان فأضطربت ووقع بين أهلها الحلف والعصبية وتفرقت ارائرهم وتشتت قلوبهم فمنهم من خرج من عمان بأهله وماله ومنهم من اسلم نفسه من قلة احتياله »

وفي رواية[٦] اخرى يشير الازكوي الى ان بعض شيوخ اليمانية نزحوا الى هرمز بحرا بعيالهم واموالهم .

معركة جلفار :

ومع ذلك فقد صمدت القبائل اليمانية وحلفائها امام الجيش العباسي ومع حالفه من النزارية ووقعت معارك شديدة في جلفار انتصر فيها العباسيون وحلفائهم حيث انفتح امامهم الطريق نحو نزوى مقر الاباضية . وفي نزوى يقول الازكوي :

« ... وتخاذلت الناس عن عزان بن تميم فخرج من نزوى الى سمر الشان »

ولكن القوات المتحالفة تعقبت الامام الاباضي عزان بن تميم بعد ان فتحت نزوى وفي ٢٥ صفر سنة ٢٨٠ هـ وقعت معركة في واحة سمر

الشان القريبة من نزوى دارت فيها الدائرة على الاباضية وقتل امامهم عزان والكثير من اشيعة الاباضية وارسلت رؤوسهم الى بغداد[٧] .

الاباغيسة يعيدون الكرة :

ولم يتخاذل الاباضية فقد برز بينهم الاهيف بن حمام الهنائي احد الانصار البارزين للامام السابق ويقول الازكوي ان الاهيف كتب :

« الى مشايخ عمان وقبائلها من كل مكان يدعوهم الى محاربة محمد بن بور واخراجه من عمان ويحثهم على ذلك فاجابوه واقبلوا اليه »[٨] .

وقد تمكن الاهيف الهنائي من استعادة نزوى وتعقب محمد بن بور الى ساحل عمان حيث اشتبك معه في معركة طاحنة في دما على بحر عمان انتصر فيها الاباضية .

ولكن المضريه انقذوا محمد بن بور من المأزق الحرج الذي وقع فيه . يقول الازكوري [٩] :

« اذا طلع عليهم ركب من اهل قدمة وغيرهم من المضريه على كل جمل رجلان من قبـــل ابي عبيدة بن محمد السامي مدركا لمحمد بن بور »

واستطاعت قوات العباسيين وحلفائهم من هزيمة اهل عمان واستعادة نزوى حيث اتخذت بعض الاجراءات الشديدة ضد الاباضية منهـــا مصادرة كتب الاباضية وحرمتها وتخريب بعض الاراضي الزراعية التابعة للقبائل الموالية للاباضية وذلك بدفن الانهار التي تجري فيها . كما وانه نقل المقر الاداري لاقليم عمان من نزوى الى بهلا التي غدت مقرا للوالي الجديد احمد بن هلال الذي يدين بالطاعة للعباسيين[١٠] .

ورغم ان الامامة الاباضية التي دامت اكثر من قرن من الزمان قد زالت ككيان سياسي من الاقليم ولكن نفوذ الخلافة العباسية لم يشمل عمان بكاملها بل انحصر في المنطقة الساحلية وشمالي عمان . وقد ظلت

القبائل اليمانية وخاصة في اواسط عمان تدين بالولاء للعقيدة الاباضية ولا تتعاون مع الولاة الذين يعينهم العباسيون .

لماذا انهارت الامامة الاباضية ؟

ان الاستنتاج الاول الذي يستنتجه الباحث في تاريخ الامامة الاباضية خلال هده الفترة هو ان انهيار الامامة ككيان سياسي يعود الى الانشقاق الذي وقع بين اشيعة الاباضية انفسهم وهذا بدوره مهد السبيل لتحرك اعداء الاباضية في داخل الاقليم وخارجه . وقد انتهزت الخلافة العباسية دون شك هذه الفرصة المواتيه فضربت ضربة قويه انهت بها سلطة الاباضية على عمان واعادته الى حضيرة الخلافه ونفوذها . ولكن لماذا انشق انصار العقيدة الاباضية على انفسهم ؟ ان الاجابة على هذا السؤال ليس بالامر الهين الا ان الذي يتبادر الى الذهن هو الضعف الذي رب في تنظيم الحركة الاباضية . فبعد ان وصلت الحركة الخارجية الاباضية الى السلطة دب الوهن في الجانب التنظيمي من الحركة ونشأ جيل جديد اقل ضبطا واضعف حماسا من جيل الرواد العقائديين الذين حملوا عبء الدعوة السرية ثم بناء الدولة الاباضية وتأسيسها . وفي هذا المجال يقول السالمي[١١] :

« ... ان هذه الدولة قد كان لها رجال لهم حلوم راجحة عالمة وقلوب سليمة كانوا على امر واحد يطأ الاخر اثر الاول ... فلم يزالوا على ذلك حتى مضوا فانقرضوا رحمة الله عليهم ... ثم خلفنا نحن واتتم من بعدهم ... الى ان ذهب اهل الفضل واهل العدل ونشأ اليوم شباب وناس ظهرت رغبتهم في الدنيا وطلبوا الرياسه فيها »

ومن الطبيعي ان تؤدي هذه الظاهرة ـ ظاهرة ضعف التنظيم في الحركة الاباضية ـ الى اتساع الهوة بين الامام الاباضي وبين شيخ الفقهاء الاباضية ، فقد كان الفقيه الاباضي يسند الامام ويبايعه وحينئذ

تصبح رئاسته مشروعه ، اما الان فلم تعد عملية انتخاب الامام عملية « ديمقراطية » بعد ان اعتمدت على القوة والعصبية القبلية . فلم يبق لمشايخ الدعوة الاباضية الدينيين الاهميةالتي كانت لهم بل ان بيعتهم صارت تأتي بعد اختيار الامام من قبل التحالف القبلي ومكملة لها !!. ويصف الازكوري علماء الاباضية في هذه الفترة فيقول :

« ووقعت الفتنه بينهم في عمان وكبرت المحنة واختلفوا في دينهم وتفرق رأيهم » .

هذا من جهة اخرى فان تاريخ الحركة الخارجية عامة وفي الاقاليم المختلفة وليس في عمان فحسب يثبت المرة تلو الاخرى اثر العصبيات القلبية في سياسة زعمائها الذين برهنوا ان انتماءاتهم القبلية كانت اقوى من الشعارات العقائدية التي رفعوها وهكذا كانت حركاتهم تجمع النقيضين : الحماس الديني والتعصب القبلي !!. وفي هذه الفترة بالذات ظهرت تكتلات قبلية جديدة تجمعت حول شخصيات قبلية ظهر اثرها على المسرح السياسي على حساب سلطة الامام الضيقة ولذلك نشاهد المؤرخ الازكوي يكثر من استعمال الاصطلاحات التي تدل على ضعف نفوذ الامام الاباضي مثل :

« وتخاذلت الناس عن عزان بن تميم » أو « فتخاذلت الرعية عن الصلت وضعف عن الامامة »[٢] .

وكان نتيجة ذلك كله حرب اهلية مدمرة كلفت عمان كيانها سياسي وعقيدتها الاباضية .

واخيرا وليس اخر فان سقوط الامامة جار بسبب تدهور الاحوال الاقتصادية فيها بعد ان هاجر العديد من أهل عمان بأموالهم وذراريهم الى مراكز قريبة تتمتع بالاستقرار وقد اشرنا سابقا الى هرمز كما هاجر آخرون الى البصرة واماكن اخرى . وقد ردمت بعض الانهار وقطعت الاشجار كأعمال انتقامية قامت بها بعض القبائل ضد قبائل اخرى . او قامت بها القوات العباسية لاضعاف مقاومة القبائل الاباضية .

ولا يخفى ان الهجرة لا تنحصر اثارها السلبية على الجانب الاقتصادي فحسب بل تتعداه الى الجانب العسكري والسياسي حيث عانت الامامة الاباضية من قلة الاتباع والانصار وخاصة بعد هجرة العديد من اليمانيين عن عمان وهذا بدوره اضعف نفوذها وسيطرتها .

الخاتمة :

كل هذه العوامل مجتمعة لعبت دورها في سقوط امامة الاباضية في عمان ولا بد لنا ان نؤكد على ضعف التنظيم للاباضية في اواخر عهدهم بعمان مما ادى الى انشقاق الشيعة الاباضية على بعضهم وبالتالي الى تخاذل الناس عنهم .

وهكذا اضاع اهل عمان ذلك الدور المبرز الذي كان من الممكن ان يلعبوه على الساحة العربية الاسلامية خاصة وان الخلافة العباسية كانت تشكو انئذ الضعف والتحكم العسكري التركي .

---

(١) د . فاروق عمر ، ملامح من تاريخ الحركة الاباضية ، المؤرخ العربي ، العدد الثاني ١٩٧٥ ص ١٦٦ فما بعد .

(٢) الازكوي ، مخطوطه تشف الغمة الجامع لاخبار الامة ، ورقة ٣٣٠ أ مخطوط مصور في مكتبة الدراسات العليا بكلية الاداب ، بغداد .

(٣) الازكوي ، المصدر السابق ، ورقه ٣٣٤ أ .

(٤) المصدر السابق ، ورقة ٣٣٤ ب فما بعد .

(٥) الازكوي ، ورقه ٣٣٥ أ

(٦) المصدر السابق نفسه .

(٧) الازكوي ، ورقة ٣٣٥ ب . — نور الدين السالمي ، تحفه الاعيان بسيرة اهل عمان ، القاهرة ١٩٦١ الجزء الثاني ، ص ٢٥٩ .

(٨) الازكوي ، المصدر السابق ، ورقة ٣٣٥ ب

(٩) الازكوي ، ورقة ٣٣٦ أ .

(١٠) راجع المصدر السابق ورقة ٣٣٦أ فما بعد .

(١١) السالمي ، تحفة الاعيان .. ، ج ٢ ص ٢٠٤ فما بعد . وفي مكان آخر يصف السالمي اهل عمان في تلك الفترة قائلا « قل بصرهم وزالت عقولهم وجاروا عن الحق وخالفوا سيرة المسلمين الا قليلا ! نقذهم الله » ج ٢ ص ٢٠٣ .

(١٢) الازكوي ، المصدر السابق ، ورقة ٣٣٣ ب .

(١٣) راجع : الازكوي ، ورقة ٣٣٥ ب وكذلك ورقة ٣٣٣ أ .